تقديم

عندما بدأت أصبو نحو المعرفة بالقارة الإفريقية تجسدت لدى رغبة وتمنيت أن أساهم فى كتابة تاريخ القارة بعيون إفريقية،وقد تحقق لى هذا الأمل المنشود بهذا الكتاب الثالث عن تاريخ إفريقيا «غزو القارة ومقاومة شعوبها». سبقه كتابان الأول«العبودية فى إفريقيا» والثانى «تجارة العبيد فى إفريقيا»، وبهذه الثلاثية أرجو أن أكون قد سددت شيئًا لقارتنا المظلومة.

لا أدعى أنى جئت بجديد أو بحدث مغاير لما هو مسجل ، فقدحصلت على المعلومات من الكتابات الغربية بأقلام الرحالة والسياسيين والمفكرين الأوروبيين فهذا هو المتاح، إذ أن التاريخ الإفريقى لم يكتب بعد بأقلام إفريقية اللهم إلا القليل جدًا.ولكن كان لى فيما قرأته وحصلت عليه من معرفة نظرة مغايرة ومفاهيم مختلفة للحدث..ان الحدث هو الحدث ولكن فهمه وتفسيره يختلف من نظرة إلى أخرى ومن تحليل لآخر. على سبيل المثال أكذوبة أكل الأفارقة لحوم البشر الذى وصم به الافارقة يذكره المؤرخ **مادهو بانيكار** فى كتابه القيم«الوثنية والإسلام» ص٢٢٩:كان لدى الإفريقيين استعداد للنظر إلى الأوروبيين على انهم مخلوقات جبارة؛ ذلك أن الزنوج عندما رأوا الحملة المراكشية ظنوا أن سلطان مراكش يستخدم فى الحملة مخلوقات جبارة يمكن أن تدمر الزنوج (يقصد بهم الاسبان الذين كانوا فى جيش السلطان) فالبشرة البيضاء كانت تعتبر فى بعض المناطق خاصة بأناس نهضوا من القبور،وكذلك كان الزنوج يرجعون سبب تجارة الرقيق لأن الأوروبيين مغرمون بأكل «اللحم الأسود». وقد استطاعت الكتابات الغربية المزيفة أن تقلب الأمور وتدعى أن الافارقة هم المغرمون بأكل لحوم البشر ، وللأسف روجت بعض الكتابات العربية لهذه الأكذوبة حتى أنه عندما سقط **بوكاسا** أول رئيس أفريقى لجمهورية إفريقية الوسطى بعد الاستقلال ظهر فى الصحف العربية من يذكر أن ثلاجة مقر الرئيس كانت مليئة بلحوم آدمية، هذا رغم أن القائد الفرنسى الذى قبض على **بوكاسا** نفى ذلك بشدة.

يفسر الكاتب النيجيرى **ريمى كابو** ذلك بقوله «عندما حدثت العبودية وجد نمط يعتبر الأسود جنسًا إفريقيا أدنى ينظر إليه أنه أقل ذكاء بينما الرجل الأبيض ينظر إليه باعتباره أسمى، ثم جاء علماء الاجتماع فى القرن ١٩ من امثال داروين يتحدثون عن عدم المساواة الذهنية للأسود وفرض هذا المفهوم مرة بعد أخرى، وعندما انتهى كل ذلك فى ستينيات القرن العشرين باستقلال القارة فإن الجماهير البيضاء لم تفطن ولا عرفت أن الشعب الأسود ليس أقل بشرية وليس قريبًا من القرود والحمقى وغير ذلك، ومن ثم فقد انتهت المعركة ويفترض أننا جميعًا متساوون ولكن لم يحدث شىء متعلقًا بهذه الفكرة الشيطانية».

إن الغزوات الأوروبية الأولى لإفريقيا بدأت فى القرن ١٥ عندما جاء البرتغاليون الذين أنشأوا شبكة من الحصون والمستودعات على الساحل الغربى،ودخلت إفريقيا عهد تجارة الرق التى امتدت أربعة قرون. وبعد إلغاء الرق عام ١٨٠٧ ابتدعت الثورة الصناعية التى ظهرت حاجتها إلى المواد الأولية والأسواق لتصريف منتجاتها، ابتدعت شكلًا آخر من العبودية وهو استعباد الأرض بمن عليها؛ أى أن يحتلوا أرض القارة وما فيها من بشر، ذكر المبشر الاسكتلندى التابع للكنيسة البروتستانتية فى أوغندا «**الكسندر ماردوج ماكى**» فى عام ١٨٨٩ :«فى السنوات الماضية كان الهدف العام هو سرقة الإفريقيين من إفريقيا، واليوم صارت أوروبا مصممة على أن تسرق إفريقيا من الإفريقيين».

إن فى تاريخ الشعوب والأماكن أحداث ووقائع تُغير مجراها بل قد تحدد مسيرتها لمئات السنين، ولكن هذه الأحداث كثيرًا ما تتجاهل أو تذكر كشىء عابر عادى، هذا التجاهل غالبًا ما يأتى من صانعيها أو المستفيدين منها الذين جنوا ثمارها. ويعتبر مؤتمر برلين الذى انعقد فى القرن ١٩ (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) من الأمثلة الصارخة. هذا المؤتمر اللعين هو الذى فتح الباب على مصراعيه للمستعمرين الأوروبيين ليلتهموا قارة بأكملها يقسموها بينهم ويرسموا حدودها على الورق دون الالتفات لحقوق شعوبها وقبائلها، وكان هذا التقسيم من الجور مما حدى بأكبر المستعمرين **لورد سالزبورى** أن يقول عبارته الشهيرة «لقد أعطينا لبعضنا جبالًا وأنهارًا وبحيرات فى حين أننا لم نكن نعرف أين تقع هذه الأشياء بالضبط، ولم يثر أيه غرابة أو دهشة حين تبين فى بعض الأحيان أن جبالًا وأنهارًا وبحيرات لم تكن موجودة أصلًا».

لا أقول عن مؤتمر برلين أنه تجوهل تماما أو لم يسجل فى كتب التاريخ ولكنه عومل كحدث عابر شأنه شأن الأحداث والمؤتمرات العديدة التى عقدت من أجل الشأن الإفريقى. حتى فى عام ١٩٨٤ الذى كان يوافق ذكرى مرور مائة سنة على انعقاد المؤتمر مر الحدث بلا أدنى اهتمام

لا من المستعمرين صانعيه المستفيدين منه ولا من الإفريقيين الذين عانوا وتعذبوا من نتائجه. المستعمرون اعتبروه شيئًا مشينًا من مصلحتهم أن يتناسوه ، والإفريقيون حاولوا تجاهله حتى لا يذكرهم بماضٍ مهين مرير، ولا أدرى ما الذى يخجلنا نحن الإفريقيين من ماضينا أو احتلالنا أو حتى اسْترقاقنا. إن تحرير العقل الإفريقى من عقدة عبوديته لا يعنى محو تاريخ الرق من الذاكرة، فمن الحكمة أن يتبنى الأفارقة تاريخهم بكل فخر واعتزاز ويخلدوا بطولاتهم فى المقاومة حتى ولو كانت قد فشلت ولم تقو على الصمود أمام حجافل جيوش المستعمرين المدججين بالأسلحة النارية الحديثة التى حصدتهم. إن ذلك لا يشينهم ولا يظهر ضعفهم بل يظهر ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى ويوقظ فى الضمائر المسئولية تجاه هذه القارة المظلومة.

ألخص هذا الكتاب فى كلمتين«الغزو»«والمقاومة» ، والكتابات عن غزو واحتلال إفريقيا عديدة لا حصر لها منها المحايد ومنها الجائر، ولكن قلة قليلة جدًا ما تتحدث عن مقاومة الافريقيين وتضحياتهم واستبسالهم من أجل سيادتهم ووجودهم. يكاد هذا الأمر يكون منكرًا حتى من الإفريقى ذاته إذ إنه يشعر بالخزى عندما يتذكر الفترة الاستعمارية. وقد حاولت أن أسجل بأمانة ماضينا ما واجهناه وما فعلناه وما عانيناه، وهل كنا متهاونين فى صد العدوان أم أننا فعلنا ما كان باستطاعتنا ومقدرتنا أن نفعله فى ذلك الحين.

إن من مسئوليتنا أن نكشف عن ماضى إفريقيا الدفين وندرسه بكل فخر واعتزاز والحمد لله ليس فيه ما يشين ،إن الذى يجب أن يخجل منه هم المستعمرون الأوروبيون المتشدقون بالسمو والتحضر والتفوق وبحقوق الإنسان فهو عار على أوروبا.

*****